الاقتصاد في الاعتقاد

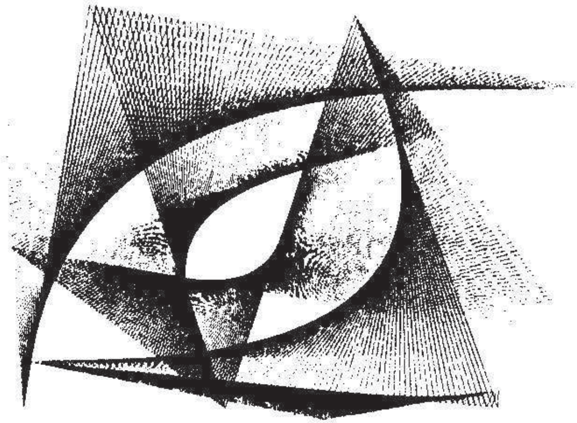
لحجة الإسلام
الإمام محمد أبي حامد الغزالي

شرح وتحقيق وتعليق
الدكتورة إنصاف رمضان

الاقتصاد في الاعتقاد

لحجة الإسلام

الإمام محمد أبي حامد الغزالي



شرح وتحقيق وتعليق

الدكتورة إنصاف رمضان

الطبعة الأولى

1423 هـ - 2003 م

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا

ص.ب: 13414

هاتف: 30 24 224 11 963+

فاكس: 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان

ص.ب: 14/6364

خليوي: 833 814 3 961+

فاكس: 171 377 1 961+

www.kotaiba.com

E-mail : dar@kotaiba.com

فالكرامة: تظهر بخرق عادة ـ كالمعجزة ـ ولكن من غير تحدٍّ.

أما المعجزة: فهي فعل خارق للعادة يظهر على يد مدَّعي النبوة عند تحدي المنكرين له.

فإن لم يكن دعوى فقد يظهر الفعل الخارق للعادة على يد فاسق.

فإذا قال الخصم: هل من المقدور إظهار المعجزة على يد كاذب؟

ـ الجواب:

إن الأنبياء من صفاتهم الصدق. وإن الله تعالى يؤيد الأنبياء والرسل بالمعجزات المقرونة بالتحدي تصديقاً لنبوتهم، وتصديق الكاذب محال. وكل من قال له الله أنت رسولي، خرج عن كونه كاذباً. فمن المحال الجمع بين قول الله تعالى: صدقت أنت رسولي. وبين كونه كاذباً.

إن تأييد الله تعالى للرسول بالمعجزة يعني أنه يقول له: صدقت أنت رسولي. إذاً ليس من المقدور أن يظهر الله المعجزة على يد كاذب.

القطب الرابع

ـ الباب الأول ـ

(في إثبات نبوةِ محمَّدٍ ﷺ)

وقبل إثبات نبوة محمد ﷺ لابد من إضاءة حول النبوة وحاجة الناس إلى الأنبياء والرسل

النبوة والرسالة:

إن معنى الجائز عقلاً في حقه تعالى، إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ابتداء من آدم عليه السلام، وانتهاء بمحمد ﷺ، وإن هذا الإرسال ليس واجباً عليه ولا مستحيلاً بل بمحض فضله وإحسانه الخالص.

والنبوة تعني: وصول خبر من الله تعالى بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده. فالنبوة إذاً: علاقة بين الوحي والأنبياء.

أما الرسالة: فهي تكليف الله تعالى أحد أنبيائه بإبلاغ الناس شرعاً أو حكماً.

فالرسالة إذاً: علاقة بين النبي وسائر الناس.

فالنبوة إذاً: أشرف من الرسالة، لأنها صلة النبي بخالقه والرسالة صلة النبي بالناس.

الفرق بين النبوة الرسالة:

1 ـ قال بعض العلماء: إن النبوة والرسالة كلمتان مترادفتان. ذات مدلول واحد، فكل نبي رسول وكل رسول نبي. فالرسول رسول بالنظر لما بينه وبين الناس والنبي يسمى نبياً لما بينه وبين الله تعالى. وكلاهما متلازمان. وقد ذهب هذا المذهب القاضي عياض وغيره من المالكية.

يعرض عليه من التوارة شيء من الأحكام، ولم يطلع عليها، وهذا دليل نبوته.

فما الذي صرفهم عن محمد ﷺ وعن الإيمان به؟

ومن المعلوم أن اليهود لم يحتجوا به؛ لأن ذلك لو كان لكان مفحماً لا جواب عنه، وأنهم لم يتركوه مع القدرة عليه وكانوا يحرصون على الطعن في شرعه بكل ممكن، حماية لدمائهم وأموالهم ونسائهم.

فإذا ثبت عليهم نبوة عيسى عليه السلام، أثبتنا نبوة محمد ﷺ بما نثبتها على النصارى الذين أنكروا القرآن.

الفرقة الثالثة:

وهؤلاء يجوزون النسخ لكنهم ينكرون نبوة محمد ﷺ من حيث أنهم ينكرون معجزته في القرآن، وفي إثبات نبوته بالمعجزة طريقتان:

الأولى: التمسك بالقرآن: فلا معنى للمعجزة إلا ما يقترن بتحدي النبي عند استشهاده على صدقه، على وجه يعجز الخلق عن معارضته. وتحديه للعرب مع شغفهم بالفصاحة وإغراقهم فيها متواتر، وعدم المعارضة معلوم، إذ لو كان هناك من يعارض لظهر. إذ إنّ أرذل الشعراء لمّا تحدوا بشعرهم وعارضوا، ظهرت المعارضات والمناقضات الجارية بينهم. إذاً يمكن القول:

أ- لا يمكن إنكار تحديه ﷺ بالقرآن.

ب- لا يمكن اقتدار العرب على الفصاحة.

ج- لا يمكن إنكار حرصهم على دفع نبوته بكل ممكن حماية لدينهم ودمهم ومالهم وتخلصاً من سطوة المسلمين وقهرهم.

د- ولا يمكن أيضاً إنكار عجزهم؛ لأنهم لو قدروا لفعلوا فالعادة قاضية بالضرورة بأن القادر على دفع الهلاك عن نفسه يشتغل بدفعه، ولو فعلوا لظهر ذلك ونقل.

- وبمثل هذه الطريقة تثبت نبوة عيسى.

فإن قيل: ما وجه إعجاز القرآن؟ قلنا: الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب في خطبهم وأشعارهم، والجمع بين هذا

النظم وهذه الجزالة معجز خارج عن مقدور البشر. وجزالة القرآن قضى - كافة العرب - منها العجب، ولم ينقل عن واحد منهم أنه طعن في فصاحته.

نعم ربما نجد للعرب خطب وأشعار فيها جزالة، وربما ينقل عن بعض من قصد المعارضة، مراعاة هذا النظم بعد تعليمه من القرآن، ولكن مع ركاكة كما يحكى عن ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال: الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل وخرطوم طويل... فهذا وأمثاله ربما يقدر عليه مع ركاكة يستهزئ بها الفصحاء.

إن هذا مع شهادة كافة العرب بفصاحة القرآن يجعله معجزاً وخارجاً عن مقدور البشر.

فإن قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن، ولو قصدت ذلك لقدرت عليه، أو منعتها العوائق عن الاشتغال بذلك.

يكون الجواب: إن هذا هوس! فإن دفع تحدي المتحدي بنظم الكلام أهون من الدفع بالسيف، مع ما جرى على العرب من المسلمين - في معرض التحدي - بالأسر والقتل والسبي وشن الغارات. فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالى، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات.

مثال: فلو قال نبي: آية صدقي أني في هذا اليوم أحرك أصبعي ولا يقدر أحد من البشر على معارضتي. ولم يعارضه أحد في ذلك اليوم، ثبت صدقه، وكان فقد قدرتهم على الحركة مع سلامة الأعضاء من أعظم المعجزات.

وإن فرض وجود القدرة، وفقد داعيتهم وصرفهم عن المعارضة من أعظم المعجزات. فهذا طريق تقدير نبوته على النصارى. ومهما تشبثوا بإنكار شيء من هذه الأمور الجليلة فلا يصح إلا الاشتغال بمعارضتهم بمثله في معجزات عيسى عليه السلام.

الطريقة الثانية: أن إثبات نبوته ﷺ بجملة من الأفعال الخارقة للعادات التي ظهرت عليه، كإنشقاق القمر ونطق العجماء، وتفجر الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في كفه، وتكثير الطعام القليل وغيره من خوارق العادات كما مر سابقاً، والتي تؤكد وتدل على صدقه.

- فإن قيل: آحاد هذه الوقائع لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر.

الجواب: ذلك أيضاً. إن سلم - فلا يقدح في العرض مهما كان المجموع بالغاً مبلغ التواتر، ومثله في ذلك كشجاعة علي (رضي الله عنه) وسخاوة حاتم، فإنهما معلومان بالضرورة على القطع تواتراً، وآحاد تلك الوقائع لم تثبت تواتراً، ولكن يعلم من مجموع الآحاد على القطع، ثبوت صفة الشجاعة والسخاوة، فكذلك هذه الأحوال العجيبة بالغة جملتها مبلغ التواتر.

فإن قال قائل من النصارى: هذه الأمور لم تتواتر عندي لا جملتها ولا آحادها.

الجواب: لو انحاز يهودي إلى قطر من الأقطار ولم يخالط النصارى، وزعم أنه لم تتواتر عنده معجزات عيسى عليه السلام، وإن تواترت فعلى لسان النصارى وهم مهتمون به بماذا يجيبون؟ وهم بالتأكيد سيقولون: ينبغي أن يخالط القوم الذين تواتر ذلك بينهم حتى يتواتر ذلك إليه فإن الأصم لا تواتر عنده الأخبار، وكذا المتصامم.

وهذا هو الجواب لأي واحد ينكر التواتر لمعجزات النبي ﷺ على هذا الوجه.

الباب الثاني
بيان وجوب التصديق بأمور ورد بها الشرع وقضى بجوازها العقل

المقدمة:

إن من الأمور أموراً تعلم بالضرورة - أي الفطرة - مباشرة ومنها ما لا يعلم بالضرورة.

1 - أما ما يعلم بالضرورة: مثل البديهيات والمسلمات، فإن الإنسان يعرفها معرفة مباشرة، لا تحتاج إلى استدلال وبراهين؛ لأنها صادقة واضحة بذاتها، لا تحتاج إلى براهين.

2 - أما ما لا يعلم بالضرورة: فإنه ينقسم إلى قسمين:

1 - ما يعلم بدليل العقل دون الشرع: أي معرفة عقلية.

2 - ما يعلم بالشرع دون العقل: - أي عن طريق النقل - مثل معرفة الغيبيات أو السمعيات.

3 - ما يعلم بالعقل والشرع معاً: مثل رؤية الله تعالى، وخلق الله تعالى للمخلوقات.

ما يعلم بدليل العقل دون الشرع:

كمعرفة حدوث العالم، ومعرفة حدوث المحدث (الله) وصفاته إن معرفة كل هذه الأمور تثبت بالعقل وإن لم تثبت بالشرع، لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]. أي أنها آيات وأدلة واضحة - على وجود الله - لأصحاب العقول الناضجة. وهذا رأي المعتزلة وغيرهم.. الذين يرون أن العقل قادر على معرفة الله، ومعرفة الحقائق...

---

(1) سورة فصلت الآية / 53/.

(2) سورة آل عمران الآية / 190/.